# إبراهيم الكوني - الربة الحجرية

(١٧)

هَامَ «آكّا» في المراعي تنقّل في الصحاري. عبر الوديان وصعد إلى العراء الموحش في «مساك صطّفت». إعتزل هناك أياماً. ولا يعلم عمّا إذا كان الملاك هو الذي نَزَل من السماوات، أم أن الوحي الغامض جاءه من صخور «متخندوش» المزقة بالإشارات السريّة. ولكنه وجد نفسه يعبر الأرض المحروقة بنيران الشموس وحمم البراكين، وينزل إلى الناحية الأخرى. تفقّد

(*) آزرّبه: خلوة العاشق مع المعشوقة (حسب عادة الطوارق).



الإبل قبل أن يَشْرَع في تنفيذ الخلق. ذهب إلى المغارة المقدّسة. كانت عالية الجدران، مخطوطة بالرموز أيضاً. بشرة الصلصال بلون اللحم، بلون الدم. بلون البشر. بَشرتها تناسب اللون البشري. المغارة المقدّسة استعارت لون بشرتها من لون البشر. إختار حجراً صلداً وبدأ العمل. صَقَلَ مساحة مناسبة من الجدار. ثم جاء بحجارة وصعد فوقها لينحت النقش من أعلى. ظلّ يجرح البشرة الحجرية الدامية ويتلو التمائم الوثنية التي تعلّمها من مخاطبات القبلي في أفواه الكهوف، واقتبسها من ثرثرات الجنّ في القمم والظلمات. استجابت الجلْدة الحجرية للتمائم السريّة فاستسلمت لمداعبات الحجر. أفْرَغَ الجسد الحجري الصَلْد من اللحم الميّت وهيّأ مكاناً للحم البشري، للحم الإلهي الذي أوحت له الآلهة أن يبثّه في الجدار الصخري المقدّس. تفضأ الحجر وتهيّأ لإحتضان الجسد الخالد. فبعد عمل جنوني استمرّ عدّة أسابيع تبدّت الملامح الأولية لمخلوق نافس البدر في بهائه، وأضاء الظلمات بنور وجهه، وبَهَر الصحراء بجماله، ووقعت قلوب الرعاة في أسره إلى الأبد. وحتى الجدار المقدس لم يُخْفِ سعادته بإحتواء جسد الربة، لأنه يعرف أنه سيزداد قداسة بهذا الإمتلاك، وسيفوز بامتياز جديد سيجعل منه معبداً خالداً في كل القارة الصحراوية.

وسوف لن ينسى «آكّا» إلى الأبد الطاعة والمرونة والاستجابة والترحيب الذي تلقاه من الحجر المقدس بمجرّد أن بدأ في تنفيذ الوحي الإلهي. وقد سمع الحجر يقول له بهمس خفي أن الضياع كُتِب على كل شيء في الصحراء ما لم يحفر في الحجر. وقد فهم فيما بعد أن هذه وصية من الأسلاف لأنه وجد نصاً منقوشاً بـ «التيفيناغ» يعيد نفس الحكمة.

تحلّى الحجر بالتجاوب الحميم ساعد «آكّا» في تجسيم الربّة، وبدا أن المغارة تتهيّأ لاحتواء الجسد المعشوق. ولم يشكّ أبداً أن روح الأسلاف تستنفر الآلهة وتستعطفها، لتعطي «تامدّورت» الحياة، وتبارك لها ميلاداً في الحجر.

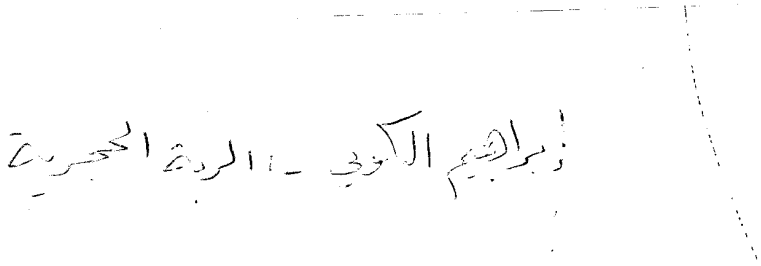


(١)

لا أحد يعرف حدود الضياع. لا أحد يعرف حدود هذا القدر لا في الزمان ولا في المكان. متى تمّ الخروج من «واو»؟ متى انفصل الصحراوي عن المنبت، عن الأصل؟ أين بدأت مسيرة الشقاء؟ أين تبدأ القارة الخرافية المسمّاة صحراء؟ أين تنتهي حدود العراء؟

حلّ النسيان ففقد الطّريد الذاكرة. كان بإمكان لعنة النسيان أن تتحوّل إلى رحمة تنقذ الصحراوي من شقاء الحنين وعذاب المنفى، ولكنها أصبحت نقمة إذْ أصابت الجسد وأخطأت الرّوح. فقد الصّحراوي، بفقدان ذاكرة البدن، طريق العودة إلى «واو»، ولكنه لم ينسَ كما أراد له الجدّ الأوّل، فتضاعف الشقاء. الرّوح تبحث، تفتّش، تطلب الأصل، والجسدُ تائه، بطيء، بليد، ضيّع السبيل إلى الأصل.

الضّياع الأول أنجب أكثر من ضياع. ضاع آنهي فقد الصحراوي دليلاً آخر إلى الحياة. كانت «واو» دليله إلى السّماء، وآنهي دليله إلى الأرض والحياة والنّاس. وعندما أضاع الكتاب أصبح الطريق إلى الأرض مقطوعاً أيضاً. أصبح الوجود نفسه ضائعاً. وجود الصّحراوي في الصّحراء وجود ضائع من البداية وإلى الأبد. الصّحراء نفسها قارّة معزولة، ضائعة عن الكون. الصّحراء تائهة منذ الأزل. ويجمع العرّافون أنها لن تهتدي إلى الأصل أبداً.

# إبراهيم الكوني - "إله الحجر"

## (الربة الحجرية)

(٧)

دسَّ حجارته السريّة في الأسس، وصنع من تمائمه النفيسة أعمدة لبنيان المدينة المقدّسة. استعار أعمدة المضارب، وجعل منها مراكز للمعمار المبارك. استعان بالعرّافين في تحديد الموقع، فأجمعوا أن السهل، بجوار الجبل المستحيل، هو قلب الصحراء الكبرى، ومركز الأرض كلّها. ناجى آخموك حجارته مع مطلع كل قبس وبدأ رحلته الجريئة لإنزال «واو» من سماواتها العليا، وإلحاق الأرض بوطن الآلهة في الفراديس الأولى. استدلّ بإشارات الحجارة، وقرأ فيها وعد القدر وعلامات البشارة. فاز بإعجاب أهل «واو» كما



جاز على دهشة أبناء القبيلة. أذهلهم أن تُبعث الواحة السماويّة المفقودة في الأرض الموات فأطلقوا عليه لقب «إيمستغ»(*) دهشةً من ضآلة جسمه وإعجاباً بعمله. أكمل بناء السّور فجاء مَن زرع في رأس السلطان أمر القربان.

حدث ذلك بعد الأحداث الجليلة التي نزلت على رأس «واو». ترددت رواية في السهل تؤكّد أن الفقهاء والدراويش وسحرة المجوس اتفقوا لأول مرّة في تاريخ الصحراء فأجمعوا على ضرورة نحر القربان تقرّباً للسماء ودفعاً للعنة التي لحقت بـ «واو» وظلّت معلّقة فوق رأسها كسيف خرافي مسلّط. ولا يُعرف أيضاً من اختار الودّان بين كل أنعام الصّحراء ليكون القربان المرشّح. كما لم يعرف آخموك متى أعطى السلطان الأمر، ومتى تحرّك العقلاء ورسموا الخطّة، ومتى انطلق الصّيادون إلى الجبال طلباً لرأس الحيوان المقدّس.

نهض في فجر أحد الأيّام ليبدأ مناجاة القبس البكر بلغة الحجارة فوجد «آمغار» الجليل، يقف في مدخل «واو» الجنوبي، مربوطاً بحبل من مَسَدٍ إلى الباب المصنوع من جذوع النّخل. كانت لحيته المخروطة تتدلّى حتى تلامس الأرض. وفوق رأسه المكابر تلوّى قرنان مهيبان عدّة التواءات. وكانت قامته ترتفع على الأرض وتنافس في طولها قامة الثيران. في عينيه رأى آخموك سرّ الحجارة الجبليّة وسمع كلمة اللّه.

خرج من بيته واتّجه إلى «أمغار». وجد رجال السلطان يسنّون السّكاكين استعداداً لنحر القربان. حيّاه أحدهم بإيماءة من رأسه. وتطوّع الثاني فأخبر:

- أمر السّلطان بنحر القربان قبل الشروق!

لم يعلّق. اقترب من الحيوان العظيم فرأى معجزة. سقط آخموك على الأرض وبدأ يتلوّى. هرع إليه الرجال فوجدوه يرتجف. عيناه جاحظتان وفمه يلفظ الزبَد. توسّل بفجيعة:

---

(*) إيمستغ: السنونو (تماهق).

- لا تذبحوا القربان. لا تذبحوا القربان حتى أقابل السلطان!

تبادل الرّجال نظرات سريعة. تولّى اثنان من المجموعة حمله إلى بيته فقاوم وتوسّل وكرّر الرجاء:

- لا تذبحوا القربان حتى أقابل السلطان!

ولكن الأمر قد صدر أن يُنحَر القربان قبل الشروق. أكملوا شحذ السكاكين وأوثقوا المخلوق الجبلي. جاء رجال آخرون وانضموا للجماعة. تكاكأوا فوق الضحيّة. وأغمدوا في نحرها السكين. عاد آخموك يزحف على قدميه ويديه ويتوسّل كالطفل:

- لا تذبحوا القربان حتى أقابل السلطان.

ولكن السكين الشرِه كان قد شرب من وريد الإله الجبلي القديم.

وصل الدرويش. ناح بلغة الدراويش:

- ويلكم أهل الأرض. ويلكم مخلوقات الشرّ. ويل للإنسان الذي لا يعرف لشراهته الحدّ. أكلتم لحم الحيوان. أكلتم لحم أخيكم الإنسان. وامتدّت أياديكم إلى لحم آلهة السماوات. فما أتعسكم. ما أشقاكم. ما أبشعكم!

بدأ آخموك يتلوّى على الأرض كأنّه يحتضر. وقف فوق رأسه الدرويش ورفع رأسه إلى القبس المقدّس. في تلك اللحظة أفلت الودّان العملاق من جمع الجلّادين. ركض باتجاه «ايدينان» يجرُّ حبل المَسَدِ الملفوف حول ساقه، وتنزف رقبته بالدم. توائب الجلّادون وركضوا خلفه. ولكن الودّان دخل الحَرَم الجبلي وبدأ يصعد الصخور المنيعة.

استمرّ آخموك يعاند الحمّى أيّاماً أخر. وعندما مات وسمع الدرويش بالخبر قال لنفسه: «لقد مات آمغار أيضاً». هرب إلى وادي الطلح. هناك ناح بلا صوت، وبكى بلا دموع.



(٨)

بعد يومين بدأ غزو بني آوى. جاءوا من الجبل كأنّ آمغار هو الذي بعثهم، تتقدّمهم بنات آوى، وفوق رؤوسهم يحلّق مقاتلون من قبائل الجنّ.

ليماسول (قبرص)

١٩٩١/٨/٥م